مجلة دراسات إنسانية واجتماعية (Journal of Social and Human Science Studies) ج وهران2/ المجلد 10 ع 2 خ / 16 /03/ 2021
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

اللغة، الحرية، التعليم، مقاربات في فلسفة نعوم تشومسكي

Language,freedom, education approaches to Naom Chomsky's philosophy

خديجة مانع Manaa khadidja Khadidja16manaa@gmail.com	فلسفة اللغة	المختبر: إشكالية البحث العلمي في بناء المجتمع العربي الجزائر أنموذجا/ كلية العلوم الاجتماعية/ جامعة مستغانم/ الجزائر
أ.د ميلود العربي* PR. Larbi miloud miloudlarbi2003@yahoo.fr	فلسفة غربية حديثة ومعاصرة	المختبر: الأنساق، البنيات، النماذج والممارسات: الفلسفة، العلوم الاجتماعية/ كلية العلوم الاجتماعية/ جامعة مستغانم/ الجزائر

DOI : 10.46315/1714-010-002-015

الإرسال: 2020/04/22 **القبول**: 2020/09/21 **النشر**: 2021/03/16

ملخص: قاد تشومسكي ثورة معرفية في مجال اللغويات سميت بالثورة الإدراكية، فمن جهة هو لساني وعالم لغويات ومن جهة أخرى ناقد ومعارض حر للسياسة الأمريكية، ومدافع عن حقوق المضطهدين حول العالم، قامت ثورته الإدراكية اللغوية على أنّ اللغة الإنسانية ملكة عقلية ومُعطى فطري، يمكن من خلالها فهم الكثير من الملكات البشرية الأخرى كالحرية، وتحاول هذه الدراسة تقريب هذين المفهومين واللذّان يُعتبران من أهم المفاهيم التّي أولى بها فيلسوفنا الاهتمام والتحليل بالإضافة إلى التعليم.

الكلمات المفتاحية: اللغة، العقلانية، الفطرية، الإبداعية، الحرية، تشومسكي، اللهجة، اللغة الرسمية، التعليم، المناهج التربوية، المدرسة.

Abstract:

Chomsky led a knowledge revolution in the field of linguistics called the cognitive revolution, on the one hand he is a linguist and linguist and on the other hand a critic and free opponent of American policy and a defender of the rights of the oppressed around the world Many other human faculties are like freedom, and this study tries to bring these two concepts together, which are considered to be among the most important concepts that our philosopher has paid attention to and analysis in addition to education.

Keywords: language, rationality, innate, creative, freedom, chomsky, accent, official language, education, educational curricula, school.

* المؤلف المُرسل: miloudlarbi2003@yahoo.fr

أ.مقدمة:

أحدث كتاب البُنى التركيبية أو التراكيب النحوية للفيلسوف الأمريكي نعوم تشومسكي عام 1957م، ثورة معرفية كبيرة في مجال علم اللغة واللسانيات أواخر القرن الماضي، وهذا من خلال الأفكار الجديدة التّي قدمها في دراسته للغة الإنسانية غير بها ما كان سائدا قبله، خاصة إذّا تعلق الأمر برفضه للنظرية السلوكية التّي قامت على وصف اللغة ودراسة الفعل اللغوي دراسة آلية. لقد أعاد بعث الأفكار العقلية التّي كانت سائدة في الفلسفة الحديثة، معتبرا أنّ اللغة جزء من معرفتنا المحددة فطريا. والمتأمل لهذا الانقلاب سيفهم الطبيعة النقدية التحررية لفكر تشومسكي، التّي استثمرها أيضا في نقده للسياسة الأمريكية الخارجية ومعارضته الشديدة لها ولدول العالم التّي تمارس الظلم والاستبداد على مواطنيها، والضغط على الحريات، التّي يعتبرها من أهم الحقوق الإنسانية والمعطيات البيولوجية التّي يجب حمايتها والحفاظ عليها. فاللغة اليوم مسألة معاصرة تتشابك فيها التفسيرات وتُستعمل كوسائل تحكمية في المجتمعات. لذلك سنتساءل: كيف يمكن لنا أن نفهم طبيعة العلاقة بين اللغة والحرية من خلال المؤسسات المتعددة والوسائل التعليمية حسب الرؤية التّي قدمها تشومسكي؟

ب.منهج الدراسة وطرق المعالجة:

لتحليل الإشكالية المطروحة اخترنا المنهج التحليلي باعتباره المنهج الملائم لتحليل البنى والمفاهيم اللغوية التي طرحها تشومسكي في فلسفته ومحاولة مقاربتها فلسفيا بمواضيع الحرية والسياسة العالمية والإشكالات الراهنة للتربية والتعليم.

تقسيم المقال اتخذ منحى تصاعدي نبتدئ من تصور تشومسكي والمدرسة السلوكية للغة، لنطرح بعدها التصورات العقلانية التي طرحها تشومسكي في مسألة فطرية اللغة والاستعمال الخلاق لها. لنبلغ حدود التحرر في الممارسة اللغوية الإنسانية، وصولا إلى طرح مسألة التعليم والمدرسة ودورهما في تنمية العقل المبدع والمتطور.

- تصورتشومسكي للغة:

يعتبر الكثير من اللِّسانيين أنّ نعوم تشومسكي (Avram Naom Chomsky) قدم قراءة جديدة للغة. "فإذا كانت الفلسفة التحليلية جعلت من كل مشكل فلسفي هو مشكل تحليل لغوي"(بلبولة،2019، ص234)، فإنّ نعوم تشومسكي تصور اللغة بطريقة فلسفية وحاول تفسير هذا التصور تفسيرا علميا، وجعل من اللغة الملكة الثابتة _والتّي هي جزء من العقل أو الدماغ على حد تعبيره_ جزءا من الإعداد الوراثي البشري مدخلا لفهم الكثير من المشكلات البشرية. "اللغة هي قوام التعبير الناطق بين جميع المتكلمين بها، فإن لم نتعرف منها على حقائق أحوالهم فما هي بأداة وافية بوسائل التعبير"(قسول،2019، ص215)، وهي أيضا أداة كشف وتفسير عند تشومسكي

وإن كان هو يعتبر التواصل أمرا ثانويا في دراسته اللغوية، وسنعرض في هذا البحث مقاربة تحليلية لبعض أفكار تشومسكي الفلسفية في اللغويات والسياسة.

-السلوكية ووصف اللغة:

تأثر ليونارد بلومفيلد (L.Bloomfield) بالنظرة السلوكية التجريبية في علم النفس، وأقام دراسته اللغوية استنادا إلى مبادئ هذه المدرسة، لأنّ اللغة بالنسبة إليه ماهي إلاّ "مجموع المنطوقات التّي يمكن أداؤها في جماعة لغوية" (تشومسكي،ن،1993، 74). والسلوك اللغوي هو سلوك مكتسب بالدرجة الأولى من المحيط الخارجي والبيئة، فالأطفال في سنواتهم الأولى إنّما يكتسبون اللغة من خلال محيطهم العائلي وبيئتهم الاجتماعية، وهي عبارة عن مجموعة من الصور تؤخذ من تقليد الكبار، أو عن طريق التكرار. "فعملية اكتساب اللغة عند الطفل تندرج ضمن عملية التعلم هي من منظور السلوكية شكل من أشكال السلوك الإنساني، لذا لا يُقِرون بوجود أي اختلاف بين تعلم اللغة وتعلم أي مهارة سلوكية أخرى ويعتمد السلوكيون مبدأ التعميم لتفسير استعمال الطفل الكلمات والتراكيب...، وقد ركز المنهج السلوكي على السلوك الخارجي للإنسان معتبرا إياه مادة التحليل اللساني، مهملا كل العمليات الداخلية التّي هي مصدر هذا السلوك" (بوقرة،ن،2009، 139) وعملية الاكتساب اللغوي هذه تخضع لعوامل الدافعية، التعزيز، القياس والمحاكاة، ولا وجود لعوامل داخلية تتحكم في الفعل اللغوي أو في وصف الحدث الكلامي مثل العقل، الإرادة، الروح، لأنّها عوامل غير قابلة للاختبار، وأمّا المعنى فهو لا يخرج عن كونه نتيجة للكلام وليس عملية عقلية، فالمنهج الآلي هو المنهج المتبع لوصف ودراسة ظاهرة الكلام من حيث هي نِتاج لمجموعة من المثيرات الخارجية تتبعها مجموعة من الاستجابات، وقد اعتمد بلومفيلد "مبدأ التوزيع في دراسة الشكل اللغوي (المورفيم) بتحليل العينة التّي يتم جمعها من المخبر اللغوي... وتحليل بنية اللغة يكون عن طريق العناصر الصوتية فقط، والتّي تتخذ من خلالها أقسام الخطاب بموقعها وتوزيعها ضمن المحيطات التّي يمكن أن تشغلها، وليس بوظيفتها الدلالية، وهذا ما يُعرف بالتحليل التوزيعي، ومبدأ التوزيع هو مجموع المحيطات التّي تشغلها وحدة أو فئة نحوية في مدونة لغوية من خلال العلاقات الإستبدالية والتركيبية المحددة لتواتر الوحدة في السياقات الكلامية"(بوقرة،ن،د.س، 128).

- عقلانية تشومسكي في مواجهة الوصف السلوكي للغة: انتقد تشومسكي التصور السلوكي للغة حيث اعتبره دراسة غير قادرة على تفسير الحدث اللغوي المعبر عن القدرة الداخلية المعقدة التّي يمتلكها الإنسان؛ وقامت معارضته على عدة حجج، يمكن أن نوجزها فيما يلي:

اللغة خاصية إنسانية وملكة عقلية: اللغة خاصيتنا الإنسانية الأساسية التّي تميزنا عن بقية الكائنات الأخرى، وهي الملكة التّي تجعلنا فريدين من نوعنا متميزين عن باقي المخلوقات والجمادات.

إننا كائنات تمتلك نظاما عقليا يزخر بملكات فطرية كثيرة من بينها اللغة، لقد أعاد تشومسكي بعث الأفكار الفطرية العقلية التّي أسس عليها العقلانيون وعلى رأسهم ديكارت المذهب العقلي في القرون الماضية، التّي تمحورت حول قاعدة أساسية وهي أنّ العقل مصدر كل المعارف الإنسانية من بين هذه المعارف المعرفة اللغوية. "فالعقل/الدماغ الإنساني ما هو إلاّ نظام معقد يدخل في تركيبه أجزاء متفاعلة ومتعددة، أحدها الجزء الذّي يمكن أن نسميه الملكة اللغوية. ويبدو أنّ هذا النظام الفريد في خصائصه الأساسية مقصور على النوع الإنساني وعام في أعضائه"(تشومسكي،ن،1990، 61)، وبفضل العقل نتمايز عن الحيوانات والكائنات الأخرى، فإذا كان التصور السلوكي حسب تشومسكي يرى أنّ اللغة والذكاء والمظاهر الأخرى لاعتقاداتنا وأفكارنا ومعارفنا محكومة بالتجربة والتدريب فهذا نفي تام للميزة التّي اختص بها بنو البشر وهي العقل والوعي، وتعميم نتائج التجارب التّي تقام على الحيوانات على السلوك البشري مناقض للطبيعة الإنسانية، "فمحاولة دراسة أصل اللغة والكيفية التّي أمكن بها للغة أن تنشأ من صيحات القردة وغير ذلك. هي مضيعة للوقت؛ لأنّ اللغة تقوم على مبدأ مخالف تماما عن أي نظام اتصالي آخر. ومن المحتمل أنّ الإيماءات الإنسانية تطورت من أنظمة اتصال حيوانية، لكن ذلك لا يصح عن تطور اللغة الإنسانية؛ فلها مبدأ مختلف كليا" (تشومسكي،ن، 1990، 252). يبدو أنّ نقطة الضعف الأساسية في مقاربة البنيويين والسلوكيين هي انعدام التفسيرات العميقة والاعتقاد بأنّ الذهن ينبغي أن يكون أبسط في بناه من كل عضو فيزيائي معروف، وأنّ أولى التقديرات تسمح بتفسير بعض الظواهر التّي يمكن أن تُلاحظ (درقاوي،2015، ص04)، وهذا أمر خاطئ، فالعقل ذو أهمية كبيرة في التركيبة العضوية للإنسان، لذا يجب على العلماء دراسته والبحث فيه لفهم ملكاته وقدراته وأنظمته المعقدة في كثير من الأحيان.

اللغة معطى وراثي وجزء من الإعداد الإحيائي البشري: يصف نعوم تشومسكي اللغة "بالظاهرة الإحيائية العجيبة" (تشومسكي،ن،1990، 68)، والملكة اللغوية هي مُكوِن من مكونات العقل/الدماغ، فهي إذن جزء من الإعداد الإحيائي للإنسان، وهي "حالة أولية محددة وراثيا"(تشومسكي،ن،1998، 207)، وخصيصة بيولوجية مشتركة بين الجنس البشري، ماعدا تلك الحالات المرضية، ما يعني أنّ بعض صفاتها الأساسية تتحدد عن طريق عوامل جينية ووراثية مثلها في ذلك مثل العديد من الجوانب البيولوجية الإنسانية الخاصة.

يولد البشر مزودين بالقدرة على الكلام والنطق وهم يحتاجون فقط للسماح بتطويرها فهي ليست متأتية من الخارج، سواء من الثقافة أو البيئة الاجتماعية، فهم يمتلكون برنامجا وراثيا لغويا، أي استعدادًا فطريا للكلام. "ونمو القدرة العقلية الإنسانية على حد ما نعرف محكوم جدا بطبيعتنا الأحيائية الداخلية. فاللغة بصفتها قدرة طبيعية هي شيء يحدث لنا، مثل تعلمنا للمشي تماما،

وبكلمات أخرى ليست اللغة شيئا نتعلمه؛ فاكتساب اللغة شيء يحدث لنا، لا شيئا نقوم بتنفيذه"(تشومسكي،ن،1990، 240). أمّا العوامل الخارجية لها جانب مهم في اكتساب اللغة ولقد أكد تشومسكي "أنّ الأصول التّي تحكم تركيب أي لغة هي عبارة عن قواعد محددة وعلى درجة كبيرة من الاتساق والتنظيم بحيث يمكن القول بأنّها وثيقة الصلة بالناحية البيولوجية في الإنسان وتكون جزءا مما نطلق عليه الطبيعة الإنسانية كما تنتقل بالوراثة من الآباء للأبناء"(ليونز،ج،1985، 23).

الاستعمال الخلاق والمبدع للغة الإنسانية: إنّ استعمال اللغة يقوم في الأساس على المظهر الإبداعي الذّي تختص به اللغة الإنسانية. عاد تشومسكي إلى الفكر الديكارتي، إلى مشكلة الكيفية التّي تستعمل بها اللغة على الصورة الإبداعية الطبيعية، فلقد قدم ديكارت النظرية الآلية التّي تقوم على تفسير أنّ كل ما هو موجود في الكون يخضع لمبدأ التفسير الميكانيكي، إلاّ أنّ هناك من المظاهر السلوكية الإنسانية ما ينفلت من هذا المبدأ وهو المظهر الإبداعي والخلاق لاستعمال اللغة، والذّي يقع خارج نطاق هذه الآلية، لأن سلوكات الإنسان التّي تنجم عن عقله لا يمكن أن تنطبق عليه التعميمات الاستقرائية، باعتباره ليس مجبرا على عمل ما إنّما هو يُوجه ويُحث فقط؛ وبإمكانه القيام بهذا العمل الذّي يُوجه له أو لا، وذلك عكس الآلة أو الحيوان التّي تكون مجبرة على العمل بطريقة محددة تحت ظروف معينة، "والفارق بين أن تكون مجبرا وأن تكون محثوثا أو موجها وحسب، فارق جوهري كما يرى الديكارتيون وهي نتيجة دقيقة جدًا. ويبقى الفارق جوهريا وإنْ لم يظهر في السلوك الفعلي. ولو لم يكن الأمر على هذا الوجه لأمكن أن يوصف سلوك الإنسان وصفا دقيقا في الإطار الآلي، لكن هذا الوصف لن يكون تعيينا صحيحا لصفات بني الإنسان الأساسية ولا لمصادر سلوكهم. ويتوجب علينا إن أردنا تفسير حقائق الكون التّي لا تخضع لاحتمالات التفسير الآلي أن نبحث عن مبدأ آخر غير آلي، وذلك المبدأ هو ما يمكن أن نسميه الإبداع"(تشومسكي،ن،1990، 193). لذلك فخاصية الإبداع اللغوية هي واحدة من الخصائص التّي تجعل من البشر خارجين عن مبدأ التفسير الآلي.

ج-الفكر التحرري والمرجعية الفلسفية اللغوية عند تشومسكي:

يرى تشومسكي أنّ دراستنا للغة يمكن أن تزودنا بنقطة الانطلاق لأبحاثنا في مشاكل الطبيعة البشرية؛ لأنّ جميع البشر يولدون بغرائز مشتركة وفطرية وهذه الغرائز تشكل جزءًا من الطبيعة البشرية المشتركة بين جميع الناس، من هذه الغرائز غريزة اللغة وغريزة الحرية، في محاضرة بعنوان "اللغة والحرية"، ألقاها بندوة الحرية والعلوم الإنسانية بجامعة شيكاغو 1987م، تحدث تشومسكي عن المد التحرري الفكري والأفعال الثورية الفلسفية في الفكر الغربي لنهاية القرن الثامن عشر. انطلق من الأفكار التنويرية لأقطاب الليبرالية الكلاسيكية والاشتراكية الفوضوية

(باكونين، كروبوتكين، شيلنغ، راسل، ماركس، روسو، همبولت)، ففي نظره أنّ هؤلاء؛ دافعوا عن مفهوم إنساني للطبيعة البشرية، تقوم فكرتهم على أنّ "هناك طبيعة بشرية خلاقة، حرة وغنية، يجب إطلاقها كي يعيش البشر بسعادة" (تشومسكي،ن،2017، 10).

-كذبة المجتمع المدني عند روسو:

حسب تشومسكي "سعى روسو في كتابه أصل التفاوت بين الناس إلى تبيان أصل وتطور اللامساواة، وتأسيس وتعسف المجتمعات السياسية، عن طريق الاستدلال عليها باستخدام العقل"(تشومسكي،ن،2017، 19). استنتاجاته كانت صادمة آنذاك حيث شكك روسو بجميع التنظيمات الاجتماعية وكذلك بشرعية التحكم الفردي بالملكية والثروة، فلقد جادل روسو بأنّ المجتمع المدني ما هو إلاّ مؤامرة من قبل الأثرياء للحفاظ على ما سرقوه من الآخرين بتشريعات وقوانين تدّعي العدالة والسِلم والتساوي بين الأفراد في الحقوق والواجبات. حيث اعتبر روسو بأنّ "المجتمع والقوانين أعطت قيودا جديدة للضعفاء وسلطات جديدة للأقوياء، ودمرت الحرية بشكل دائم، وأرست إلى الأبد قانون الملكية واللامساواة، وحولت اغتصاب الشرعية الخبيث إلى حق نهائي، ولمصلحة قلة من الطموحين أجبرت كامل الجنس البشري على العمل والخدمة والبؤس"(تشومسكي،ن،2017، 20). المثير للانتباه هو كيف تمكن روسو من الوصول إلى هذه النتائج عن طريق العقل وحده منطلقا من أفكاره حول طبيعة الإنسان، هذه الطبيعة المختلفة عن جميع الكائنات.

قال روسو: "في كل حيوان أرى آلة بارعة حبتها الطبيعة بحواس كي تحيا وتحافظ على ذاتها، إلى مدى محدد، من كل ما ينحو إلى تدميرها أو تخريبها. أجد الأمر نفسه بالضبط في الآلة البشرية، مع الفارق بأنّ الطبيعة وحدها تقوم بكل العمل في الحيوانات، في حين أنّ الانسان يساهم في هذا العمل لكونه فاعلا حرا. الأول يختار أو يرفض بناءً على الغريزة وحدها أمّا الأخير فبالفعل الحر. لذا فالحيوانات لا تستطيع أن تكسر القواعد المفروضة عليها حتى إن كان ذلك الكسر نافعا لها، والإنسان يكسر القواعد غالبا برغبته...فليس الفهم فقط ما يميز الإنسان عن الحيوان بل الفعل الحر. الطبيعة تحكم الحيوانات، وهي تطيع. يشعر الإنسان بأوامر الطبيعة نفسها، ولكنه يدرك أنّه حر في أن يعصي أو يطيع، وتظهر روحانية نفسه، قبل كل شيء، في الوعي بهذه الحرية. تشرح الفيزياء بطريقة ما ميكانيزم الحواس وكيفية تشكل الأفكار، ولكن في قوة الإرادة، أو بالأحرى الاختيار، وفي الإحساس بهذه القوة توجد أفعال روحية فقط لا تفسرها قوانين الميكانيك" (تشومسكي،ن،2017، 22،21)، إذا فجوهر الإنسان هو حريته، ووعيه بها، لذلك يرى روسو بأنّ الشعور بقيمة الحرية يستمر طالما كان المرء يستمتع بها. إنّ التميز الإنساني عن باقي الكائنات الأخرى هو امتلاكه للعقل، واستخدام اللغة بالأسلوب العادي الخلاق، وغير الخاضع لمثيرات

محددة، الجديد والمبدع، والملائم للأوضاع، والمتماسك، والذّي يولد في أذهاننا أفكارا جديدة، هذا الاستخدام الخلاق يعكس حرية التفكير والتعقل الإنساني. الخواص الجوهرية للغة وطريقة استخدامها الخلاق والمبدع تزودنا بالمعيار الرئيس للحكم على التفكير الحر والتعبير عن النفس.

-همبولت وممارسة الفعل الحر:

يعد فيلهلم فون همبولت (V.Humboldt) أحد أكثر المفكرين إلهاما لتشومسكي. "فمن جهة كان أحد أعمق المُنظِرين للسانيات العامة، ومن جهة أخرى، مناصرا مبكرا وحازما للقيم التحررية. الفكرة الرئيسية في فلسفته هي التربية، والتّي هي بحسب ج. دبليو. بورو، قصد بها "التطور الأكمل والأغنى والأكثر انسجاما لإمكانيات الفرد والمجتمع والجنس البشري" (تشومسكي،ن، 2017، 28). يقر تشومسكي بأنّ همبولت واحد من الفلاسفة الذّين فهموا بأنّ العقل من أهم ميزات الإنسان وأنّ وعيه بالحرية هو من أسمى المعاني التّي يمكن أن يعيها الفرد، مثل روسو رأى همبولت أنّ: "لا شيء يحضُّ على نضوج الحرية كالحرية ذاتها. هذه الحقيقة، ربما لن يعترف بها أولئك الذّين يستخدمون عدم النضوج هذا كعذر لاستمرار الاضطهاد. ولكنّها تبدو لي نابعة بشكل لاريب فيه من طبيعة الإنسان نفسها. لا يمكن أن نجهل كيف نتصرف بحرية إلاّ بسبب نقص القوى الأخلاقية والعقلية. السمو بهذه القوى هو السبيل الوحيد لمعالجة هذا النقص، ولكن هذا يفترض تدريب هذه القوى، وهذا التدريب يفترض الحرية التّي توقظ الفعالية العفوية. لا يمكن أن نسمي تخفيف القيود التّي لا يشعر بها المقيد وهبا للحرية؛ ولكن لا يوجد إنسان على سطح الأرض _مهما تجاهلته الطبيعة، أو مهما حطته الظروف إلاّ وكانت تلك الحقيقة صحيحة بالنسبة إلى القيود التّي تكبله كافة. فلنرفعها واحدة واحدة، حيث يستيقظ الشعور بالحرية في قلب الإنسان وسوف نسرع التقدم مع كل خطوة"(تشومسكي،ن،2017، 29).

قدم همبولت تصوره للدولة التّي تسعى دوما إلى جعل الإنسان أداة لتحقيق أهدافها العشوائية أو المُخَطط لها، وتتجاهل تطلعاته الفردية. التعليم وهو أحد المؤسسات الهامة التّي تُحكم الدولة عليها قبضتها، يجب أن يكون خارج الحسابات السياسية، وأنْ يزودنا بفرص لتحقيق الذات، في أحسن الأحوال يستطيع أن يخلق بيئة غنية ومحفزة للفرد كي يستكشف، على طريقته الخاصة. حتى اللغة، بالمعنى الدقيق، لا يتم تعلمها، ولكن فقط "إيقاظها في الذهن: لا نستطيع إلاّ تزويد المرء بالطريق التّي سيطورها بنفسه"(تشومسكي،ن،2017، 30)، اللغة عند همبولت عملية إبداع حر، قوانينها ومبادئها ثابتة، ولكن الوسيلة التّي تستعمل المبادئ بها لإنتاج اللغة حرة ومتغيرة بشكل لانهائي. حتى استعمال وتأويل الكلمات يحتوي على خلق حر.

يستعمل السياسيون والديكتاتوريون أساليب كثيرة للسيطرة على الجماهير والحشود الشعبية ومن أهمها أنّ هذه الجماهير غير جاهزة للحرية ولا للمشاركة الفاعلة في تحسين الأمور لأنّ عامة

الناس في رأيهم أغبياء لا يستطيعون فهم الأشياء على حقيقتها وإذا ما حاولوا المشاركة في إدارة أمورهم فهم يتسببون في خلق المشاكل وإحداث الفوضى، وهذا مبدأ أخلاقي في نظرهم، حتى وإن اعتبرناه نحن عكس ذلك، "وبذات المنطق يمكن القول بأنّه لا يجب السماح للقطيع الحائر بأن يكونوا مشاركين في الفعل، فهم سيتسببون في إثارة المشاكل، وبالتالي نحن بحاجة إلى ترويض هذا القطيع من خلال تلك الثورة الجديدة في فن الديمقراطية أو تصنيع الإجماع والقبول. حيث من المفترض أن تمد الطبقة السياسية وصانعي القرار بإحساس ما بالواقع، كما يجب أيضا تلقينهم الاعتقادات الصحيحة"(تشومسكي،ن،2003، 11)، فحتى المصطلح المستعمل "القطيع" هو دلالة واضحة على النظرة التّي تنظر بها السلطة إلى الشعب، القطيع يجب أن يكون مطيع للراعي، وإلاّ استخدم الراعي معه الأساليب المعروفة في الترويض وإعادة التهيئة.

د-المؤسسات التعليمية وطرق فرض الطاعة: حسب تشومسكي يساهم الإبداع اللغوي في تنمية حس المشاركة الفاعلة لدى الأفراد وخاصة خلال مرحلة شبابهم. لكن علينا أن ننتبه إلى حقيقة مهمة وهي أنّ أطفالنا وشبابنا يذهبون إلى المدارس ويتلقون تعليما ممنهجا، ودروسا تقرها الدولة. إنّنا مطمئنون من هذه الجهة، أي من جهة أنّ أطفالنا يحصلون على تعليم جيد ويتحصلون على علامات لربما جيدة وحسنة، تمكنهم فيما بعد تخرجهم من الجامعات والأكاديميات في الحصول على وظائف ومناصب عمل لطالما حلموا بها، وهذا أمر عادي جدّا بالنسبة لنا. لكن هل فكرنا يوما في أنّ ذهابهم إلى المدارس وتلَّقِيهم التعليم الذّي تُقِره السلطة، هل يترك لهم فرص للتعبير الحر والخلاق والمشاركة الفاعلة؟

-المدرسة مؤسسة للترويض وصراع للنفوذ:

يعتبر التعليم بمؤسساته ومناهجه وأساليبه أحد أهم الوجهات التّي يتوجه إليها السياسيون لتحقيق هذه المصالح، وتعتبر المدرسة المؤسسة الأولى التّي تسعى لتقديم التعليم للأطفال والشباب من أجل بناء أفراد مشاركين في المجتمع؛ لكن هل المدارس تقوم فعلا بهذا الدور؟ أم أنّها تقتصر فقط على تلقينهم بعض المبادئ والمناهج؟ وهل يُمكن أن تتمتع المدارس باستقلالية تامة بعيدة عن التسلط السياسي؟ المدارس اليوم، تشغل نفسها بشكل أكبر بنقل المعرفة ممّا بخلقها، من وجهة نظر اجتماعية، يسعى النظام التعليمي إلى الحفاظ على البُنى الاجتماعية والاقتصادية بدلا من تغييرها. فالمدارس والمؤسسات التربوية تمارس المبدأ الميكانيكي الذّي لطالما عبر تشومسكي وغيره من الفلاسفة العقلانيين والفوضويين بانفلات الإنسان منه. كيف يمكن لك أن تُلقن طالبا حب الوطن وخدمته في حين أنّ هذا الطالب لم ينل حقا واحدا من حقوقه التّي كان من اللازم أن تكفل له الدولة هذه الحقوق؟، يستدل تشومسكي بحادثة وقعت في إحدى المؤسسات التعليمية لولاية بوسطن؛ "حين قام طالب في الثانية عشر من عمره يدعى دافيد سبريتزلر، برفض ترديد

ميثاق الولاء لاعتباره حضا نفاقيا للوطنية وأنّه خاوٍ من مبدأ الحرية والعدالة للجميع، قامت هيئة المدرسة برفع قضية تأديب عليه، الأمر المهم هو كيف استطاع صبي في هذا العمر أن يرى النفاق في هذا الميثاق، في حين أن معلميه والقائمين على العملية التعليمية لم يتسنى لهم ذلك؟، الجواب هو أنّ عمق عملية الترويض في المدارس تقوم على أن يكون المعلمون والقائمون والمثقفون ضمن من يرسخ هذه المبادئ للتحكم في العقول، في حين أنّ الصبي تمكن من الوصول إلى هذه النتيجة عن طريق التحليل والتفكير النقدي بالنظر إلى الواقع المُعاش" (تشومسكي،ن،2006، 25).

المؤسسات التعليمية هي مدارس لفرض الطاعة واستعمال الترويض السياسي عن طريق الأفكار العلمية والمبادئ الأخلاقية وليست لإنشاء أجيال تمتلك روحا ناقدة. "وبعيدا عن خلق جيل من المستقلين، فلقد أدت المدارس دوما على مر عصور التاريخ دورا مؤسسيا في منظومة من السيطرة والقسر. وحينما يصبح الفرد على درجة عالية من التعليم، يتم ترويضه اجتماعيا بطريقة تؤازر هيكل السلطة، والذّي بدوره يكافئه بسخاء"(تشومسكي،ن،2006، 26) لذلك فحتى المعلمين والمدرسين وعلى الرغم من مستواهم الثقافي ودرايتهم العلمية، إلاّ أنّهم يساهمون بشكل كبير في هذه العملية. عملية جعل الأفراد من كل الطبقات مطيعين لأنظمتهم السياسية التحكمية التعسفية، وهذا خطأ، لذلك "يقع على عاتق المعلمين، لكونهم مفكرين _أو على عاتق أي إنسان مخلص ويتناسب وضعه وهذه القضية_ أن يحاولوا المجاهرة بالحقيقة، وهذه بالطبع مسألة ليست محلا للجدل، لأنّه يتحتم علينا كواجب أخلاقي أن نكتشف الحقيقة ونجاهر بها قدر المستطاع للأفراد المعنيين، وذلك فيما يتعلق بالأشياء المهمة لنا"(تشومسكي،ن،2006، 31) ويلزم على أي معلم أن يساعد الطلبة على اكتشاف الحقيقة، ولا يحظر المعلومات ووجهات النظر التّي قد تسبب إحراجا لذوي المال والنفوذ الذّين يبتدعون ويصممون ويقرون سياسات المدارس. ويضرب تشومسكي المثل بحرب الولايات المتحدة الأمريكية ضد الفيتنام، حيث قام الكثير من الطلبة والمثقفين بحركات احتجاجية بالولايات المتحدة رافضين هذه الحرب ومعارضين لسياسة التجنيد التّي اتخذتها الحكومة الأمريكية آنذاك، وقد كان نعوم تشومسكي من الأوائل الذّين وقفوا وتظاهروا وقتئذ.

-المناهج التعليمية وقتل الروح النقدية:

"إنّ النظام الكفء لتنشئة الأطفال هو الذّي يضعهم في بيئة حافزة حانية يمكن لقدراتهم الطبيعية أن تتفتح فيها؛ فهذه القدرات لم تُعلم، بل إنّ الأمر لا يعدو أنّه سُمح لها أن تعمل بالطريقة التّي هُيئت بها كي تتطور. أمّا ما تعلمه المدارس، في الغالب، فهو نقيض ذلك تماما. فقد صيغ النظام المدرسي كي يعلم الطاعة والاندماج ويمنع القدرات الطبيعية عند الطفل من النمو"(تشومسكي،ن،1990، 239). المناهج التعليمية والقائمين عليها إنّما يعاملون الطلبة مثل

الجماهير والحشود المجتمعة للاستماع إلى خطاب رئاسي، بيد أنّ هذا الأسلوب يبتعد ابتعادا كليا عن الغرض الحقيقي للتعليم وهو جعل الفرد عضوا مشاركا وفاعلا في المجتمع والعالم بأسره، ولذلك ينبغي قيام هذه المناهج على أساس الحوار والتفاعل، والمشاركة الحرة. "ينبغي أن يقارن التعليم، كما هو الرأي التقليدي الثاقب الذّي يستحق انتباها أكثر من الانتباه الذي يُعطى له إلى الآن، لا بملء كأس من الماء بل بمساعدة زهرة على النمو بطريقتها الخاصة. فالوسائل التعليمية ومقدرا المادة التّي تقدم للطلاب، كما يعرف المعلم الجيد أمور أقل أهمية إذا قارناها بالنجاح في إيقاظ حب الاستطلاع الطبيعي لديهم وحث اهتماماتهم على الاكتشاف بأنفسهم. ومن الأمور المؤكدة أن ما يتعلمه الطلاب بطريق سلبية سينسونه بسرعة. أما ما يكتشفونه بأنفسهم حين توقظ غريزة حب الاستطلاع والقدرات الطبيعية لديهم فإنّه لن يبقى في ذاكرتهم فقط بل سيكون أساسا ينطلقون منه للاكتشاف والبحث، وربما لإسهامات فكرية عظيمة أخرى (تشومسكي،ن،1990، 187). ففي الكثير من الحالات يشتكي المدرسون من مسألة عدم انتباه التلاميذ، وهذا راجع إلى الطريقة التّي يتبعونها وهي "نظام التدريب على الأنماط" وهذه العملية هي نظرية علمية مفادها أنّ تعلم اللغة لا يزيد عن تعلم أية واحدة من العادات، فهي تشبه كيفية الإمساك بالكرة، أو ماشابه ذلك؛ فالمطلوب منك أن تمارس هذه العملية مرة بعد مرة حتى تتمكن من هذه العادة، فلتعليم الإنجليزية من طرف غير الناطقين بها يلجأ المعلمون إلى تلقين الجمل للطلبة ويطلبون منهم تكرارها حتى يحفظوها وهكذا دواليك. (تشومسكي،ن،1990، 249)، وهذه طريقة مملة جدا حسب تشومسكي، ومن أجل تفادي هذا الأمر يجب جعل المادة مشوقة. أي أنّه يجب على المؤسسات التعليمة أن تضع سببا وجيها لتعليم أي مادة، وإلاّ فلن يستطيع التعليم تحقيق شيء مفيد وعملي، مهما كانت جودته.

هـ-نتائج البحث: لقد حاولنا من خلال هذه الدراسة تقديم مقاربة لبعض أهم النقاط التّي قامت عليها فلسفة نعوم تشومسكي في محاولة منّا في معرفة كيف يمكن لنظريته في اللغة أن تساعدنا في فهم بعض المشكلات الإنسانية كالحرية.

-يتفق تشومسكي وبلومفيلد في نقطة جوهرية في دراستهما للغة وهي ضرورة تفسير الحدث اللغوي تفسيرا علميا، إلاّ أنّ طريقتهما في الدراسة مختلفتان تماما. فلقد جاء التصور اللغوي العقلاني لتشومسكي موقف الضد للتصور السلوكي التجريبي في مناحي كثيرة أهمها أنّ جعل الإنسان نِتاج البيئة الخارجية إنْ هو إلاّ سلب لإرادته الداخلية التّي لا تعترف بها السلوكية إطلاقا، فأنْ تجعل من الشخص مجرد تركيبة من عوامل خارجية ينفي امتلاك الفرد الوعي، والحرية، والاختيار، ويعزز الأفكار العنصرية والقمع والاضطهاد التّي يتبناها المتسلطون لتبرير أفعالهم القمعية؛ وإعطاء الفرصة للمتسلط في التفكير بدلا منك.

- يأخذ المظهر الإبداعي للاستعمال اللغوي في فلسفة تشومسكي اللغوية مكانة مهمة؛ فهو يعبر عن الطبيعة الخلاقة التّي يمتاز بها الإنسان، وأفكاره في الحرية والتحرر لا تزيد عن الصنف الذّي ذكرناه أي "بالأفكار الاشتراكية التحريرية لروسو وهمبولت وماركس، مصحوبة باهتمام جوهري بإعطاء الفرصة للعمل الإبداعي المثمر، الذّي يقوم به من يقوم، محكوما بنفسه هو"(تشومسكي،ن،1990، 267)؛ وعليه يجب على الأفراد المراهنة على حريتهم المعطاة فطريا.

- كما تُستخدم اللغة لأغراض دعائية وسلطوية سياسية فإنّ التحكم باللغة يقوم بصقل وصياغة فهمنا وإدراكنا للحقيقة، "فلنأخذ مثلا مصطلح "المصلحة الوطنية" فهي تستخدم عادة على أنّها شيئا جيد ونافع بالنسبة لنا، ويُفترض أن يكون الناس يفهمون ذلك. لهذا، إذا ما قال زعيم سياسي: إنني أقوم بهذا من أجل المصلحة الوطنية فإنّه من المفترض أن تشعر بالخير والسرور لأنّ هذا من أجلك. ومع ذلك، فإذا ما نظرت إلى ذلك بإمعان؛ فإنّ ذلك يتحول إلى أنّ المصلحة الوطنية لا تُعرف على أنّها عائدة لمصلحة السكان أو الشعب ككل؛ فما يعني بها أنها من ضمن مصالح جماعة صغيرة من النخب المهيمنة، التّي تكون قادرة على السيطرة على المصادر التّي تمكنها من السيطرة على الدولة، بشكل رئيس، تلك النخب المتعاونة والمتمركزة في الحكم". (تشومسكي،ن،1997، 56).

- والمهمة النبيلة والأساسية من التعليم ليس إنشاء أطباء ومعلمين ومثقفين موالين للسلطة ومحافظين على النظام الذّي يبني هذه الديكتاتوريات المستقرة بشعارات مثل الديمقراطية الزائفة والعدالة والمساواة غير موجودين، إنّما تكمن الأهداف الحقيقة للتعليم في محاولة إيقاظ الروح المعرفية الاستكشافية للطلاب، التّي هي موجودة بعقولهم فطريا حسب تشومسكي، وبناء أجيال تسعى على تغيير الوضع الكارثي الذّي تتحرك إليه البشرية بوتيرة سريعة جدا؛ أجيال متحررة تمارس الديمقراطية بصورتها الصحيحة، تنتقد وتغير الأوضاع المأساوية التّي يتسارع أصحاب النفوذ والسلطة في تثبيتها بغية تحقيق مصالحهم الخاصة.

****

قائمة المصادر:

- تشومسكي، نعوم. (2006). إهدار الحقيقة: إساءة التعليم والإعلام وأوهام الليبرالية والسوق الحرة (الطبعة الأولى). ترجمة: نعيمة علي. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية.
- تشومسكي، نعوم. (1997). تواريخ الانشقاق (الطبعة الأولى). ترجمة: محمد النجار. عمان، الأردن: الأهلية للنشر والتوزيع.
- تشومسكي، نعوم. (2003). السيطرة على الإعلام (الطبعة الأولى). ترجمة: أميمة عبد اللطيف. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية.

- تشومسكي، نعوم. (2017). غريزة الحرية (الطبعة الأولى). ترجمة: عدّي الزعبي. دمشق، سوريا: دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع.
- تشومسكي، نعوم. (1998). قوى وآفاق تأملات في الطبيعة الإنسانية والنظام الاجتماعي (الطبعة الأولى). ترجمة: ياسين الحاج صالح. دمشق، سوريا: دار الحصاد للنشر والتوزيع.
- تشومسكي، نعوم. (1990). اللغة ومشكلات المعرفة (الطبعة الأولى). ترجمة حمزة بن قبلان المزيني. الدار البيضاء: دار توبقال.
- تشومسكي، نعوم. (1993). المعرفة اللغوية طبيعتها أصولها واستخدامها (الطبعة الأولى). ترجمة محمد فتيح. القاهرة: دار الفكر العربي.

المراجع:

- بوقرة، نعمان. (دون سنة). اللسانيات اتجاهاتها قضاياها الراهنة (الطبعة الأولى). إربد: عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع.
- بوقرة، نعمان. (2009). المدارس اللسانية المعاصرة (الطبعة الأولى). القاهرة: مكتبة الآداب.
- ليونز، جون. (1985). نظرية تشومسكي اللغوية (الطبعة الأولى). ترجمة حلمي خليل. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

المقالات:

- بلبولة، مصطفى. (2019، جانفي). الفلسفة التحليلية بين وحدة المشروع وتعدد المسالك. مجلة دراسات إنسانية واجتماعية: جامعة وهران02. تم الاسترجاع من الرابط: https://www.asjp.cerist.dz/en/article/74835
- درقاوي، مختار. (2015، جانفي). نظرية تشومسكي التوليدية التحويلية الأسس والمفاهيم. مجلة الاكاديمية للدراسات الإنسانية الاجتماعية، جامعة الشلف. تم الاسترجاع من الرابط: https://www.asjp.cerist.dz/en/article/73602
- قسول، ثابت. (2019، جانفي). معاني الكلام واللسان في الدرس اللغوي. مجلة دراسات إنسانية واجتماعية: جامعة وهران02. تم الاسترجاع من الرابط: https://www.asjp.cerist.dz/en/article/74833